

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْكِرَامُ!

وَبَيْنَمَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ هَاجَرَ مِنْ وَطَنِهِ الْأَصْلِيِّ مَكَّةَ، لِيُؤَسَّسَ حَيَاةً جَدِيدَةً فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ. وَحَتَّى بَعْدَ ظُهُورِهِ عَلَى مَكَّةَ وَقُرَيْشٍ وَتَأْسِيسِهِ السَّلَامَ فِيهَا، بَقِيَ ﷺ طَوَالَ حَيَاتِهِ صَادِقًا لِلْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَطَنِهِ الْجَدِيدِ. ثُمَّ دُفِنَ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ كَذَلِكَ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ. وَرَغْمَ ذَلِكَ كَانَ لِمَكَّةَ مَكَانَةٌ خَاصَّةٌ فِي قَلْبِهِ ﷺ. فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ شَوْقًا لِمَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ. وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»².

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْكِرَامُ!

قَدْ كَانَ مَفْهُومُ الْوَطَنِ لَدَى الْأَنْبِيَاءِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) مَفْهُومًا عَالَمِيًّا. وَعَلَى ذَلِكَ يُمكنُ لِكُلِّ مَكَانٍ يَسْتطِيعُ فِيهِ الْمُسْلِمُ أَنْ يُمِضِيَ حَيَاتَهُ بَحْرِيَّةً وَأَنْ يُحَافِظَ فِيهِ عَلَى شَخْصِيَّتِهِ الدِّيْنِيَّةِ أَنْ يَكُونَ وَطَنًا لَهُ. وَلَا يُهِمُّ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَكَانُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ هَذَا الْوَطْنُ. يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾³.

إِخْوَتِي الْأَحِبَّاءُ!

نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي أَوْرَبًا، نَعْلَمُ بِنَاءَ عَلَى تَجَارِبِنَا الشَّخْصِيَّةِ كَيْفَ يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ وَطَنٌ جَدِيدٌ. إِنَّمَا نَشْعُرُ بِالِانْتِمَاءِ إِلَى هَذَا الْوَطَنِ الْجَدِيدِ، وَتَرَى مُسْتَقْبَلَنَا فِيهِ. لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنْ لَيْسَ لَنَا وَطَنٌ غَيْرُ هَذَا الْوَطَنِ. فَإِنَّ يَكُونُ لِلشَّخْصِ أَكْثَرَ مِنْ وَطَنٍ وَاحِدٍ، لَمْ يَعْدِ الْيَوْمَ احْتِمَالًا مُجَرَّدًا، بَلْ هُوَ الْيَوْمَ أَمْرٌ عَادِيٌّ جِدًّا. وَإِنَّمَا نَرَعِبُ أَنْ نُشَارِكَ نَظَرَتَنَا الْمُتَوَازِنَةَ هَذِهِ وَالْمُتَبَيِّنَةَ عَلَى اعْتِقَادِنَا، مَعَ النَّاسِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ نَعِيشُ بَيْنَ ظَهْرَانِهِمْ. وَلِهَذَا سَيَكُونُ شِعَارُنَا فِي يَوْمِ الْمَسَاجِدِ الْمَفْتُوحَةِ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ شَهْرِ أُكْتُوبَرِ هُوَ: "الَّذِي يَجْعَلُ الْوَطْنَ وَطَنًا: الْإِنْسَانُ"⁴.

نَسْأَلُ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُيسِّرَ لَنَا مُمَارَسَةَ دِينِنَا حَيْثُمَا كُنَّا، وَأَنْ يُسهِّلَ لَنَا تَبْلِيغَ دِينِهِ الْمُبِينِ وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَيْهِ، آمِينَ

إِنَّ الْوَطْنَ أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ جَمِيعُ النَّاسِ. وَكَمَا يُمكنُ أَنْ يَكُونَ الْوَطْنَ الْمَكَانَ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ الشَّخْصُ وَقَضَى فِيهِ طُفُولَتَهُ وَشَبَابَهُ، كَذَلِكَ يُمكنُ أَنْ يَكُونَ مَكَانًا يَشْعُرُ الْفَرْدُ بِالِانْتِمَاءِ إِلَيْهِ بِتَقَالِيدِهِ وَذِكْرِيَاتِهِ. فَالْوَطْنَ لَا يَرْتَبِطُ بِمَكَانٍ مُعَيَّنٍ وَلَا بِعِرْقٍ مُعَيَّنٍ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُحْسِنُ بِالِانْتِمَاءِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ بِحُرِّيَّةٍ وَيُحْسِنُ فِيهِ بِأَنَّهُ فِي الْبَيْتِ.

إِخْوَتِي الْأَعْرَاءُ!

مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ لِلْإِنْسَانِ أَوْطَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ نَتِيجَةٌ تَغْيِيرِ الظُّرُوفِ فِي حَيَاتِهِ عَبْرَ الزَّمَانِ. لَكِنَّ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَسْعَى لِيَكُونَ تَشَكُّلُ وَطَنِنَا فِي حَيَاتِنَا بِطَرِيقَةٍ إِيجَابِيَّةٍ. وَأَعْظَمُ النَّمَاذِجِ لَنَا فِي ذَلِكَ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ). فَإِنَّ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ تَعَرَّضُوا لِلظُّلْمِ وَاضْطُرُّوا إِلَى الْإِنْبِعَادِ عَنِ أَوْطَانِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ. وَرَغْمَ ذَلِكَ كَانَتْ قِصَّةُ حَيَاتِهِمْ فِي أَوْطَانِهِمُ الْجَدِيدَةِ دَائِمًا قِصَّةَ نَجَاحٍ. فَقَدْ بَيَّنَّا لَنَا كَيْفَ أَنْ مَكَانًا آخَرَ غَيْرَ الْوَطَنِ الْأَصْلِيِّ لِلْإِنْسَانِ يُمكنُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى وَطَنٍ جَدِيدٍ لَهُ، رَغْمَ قَسَاوَةِ الْأَوْضَاعِ، وَكَيْفَ أَنْ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُسْنَهُمْ فِي هَذَا الْوَطَنِ الْجَدِيدِ بِإِسْهَامَاتٍ إِيجَابِيَّةٍ نَافِعَةٍ، وَيَبْنُوا مَدَى أَهْمِيَّةِ هَذَا الْإِسْهَامِ.

فَسَيِّدُنَا إِسْمَاعِيلُ وَأُمُّهُ هَاجَرُ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) خَرَجَا مِنْ أَوْطَانِهِمَا لِيَسْكُنَا أَرْضًا غَيْرَ ذِي زَرْعٍ فِي وَسْطِ الصَّحْرَاءِ. ثُمَّ أَنْشَأَ هُنَالِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى أُمَّ الْقُرَى مَكَّةَ الْمَكْرَمَةَ. وَبَنَى فِيهَا إِسْمَاعِيلُ مَعَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) الْكَعْبَةَ الْمُشْرَفَةَ¹.

وَسَيِّدُنَا عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَدْ أَمْضَى حَيَاتَهُ كُلَّهَا فِي التَّرْحَالِ. فَبَيْنَمَا دَعَا النَّاسَ إِلَى التَّوْحِيدِ، كَانَ فِي الْمَقَابِلِ يَلْقَى مِنْهُمْ الْمُعَارَضَةَ وَالْإِعْرَاضَ. وَحَيَاةُ سَيِّدِنَا عِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) خُصُوصًا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا يَتَّخِذُونَ أَوْطَانًا مُتَعَدِّدَةً. وَكَانُوا فِي نَفْسِ الْوَقْتِ فِي أَوْطَانِهِمُ الْمَعْنَوِيَّةِ مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى تَوَكُّلًا قَوِيًّا لَا يَهْتَزُّ.



⁴ إنما يُرتَّب هذا المشروع في مساجدنا في ألمانيا. فاحذروا أيها الفضلاء على أن لا تقرؤوا هذه الجملة خارج ألمانيا، وفقكم الله.

¹ انظر سورة البقرة: ١٢٧

² جامع الترمذي، كتاب المناقب، رقم الحديث (٣٩٢٥)

³ سورة البقرة: ١١٥